# ذاكرة الصدى

قصة الأسيرة رسمية جابر

أمراء النصر والتحرير

مسابقة أجمل قصة أسير

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

# ذاكرة الصدى



ذاكرة الصدى

**جمعية المعارف الاسلامية الثقافية**

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

## بطاقة هوية

**الإسم:** رسمية جابر

**اسم الأب:** فوزي

**اسم الأم:** فاطمة حجازي

**محل وتاريخ الولادة:** محيبيب ١٩٦٥

**تاريخ الإعتقال:** ٣/١/١٩٩٠

معتقل الخيام / الزنزانة رقم ٧

**التهمة الموجهة:** مساعدة المقاومة الإسلامية

**تاريخ الإفراج:** ٢٩/٥/١٩٩١

# الإهداء...

إلى الجرحِ
الذي أفاض
حباً ونوراً ...

# ١ ـ لقاء

شعرت بارتياح شديد، كأن ماءً رقراقاً قد سال على جرح تغورُ فيه الدماء الحارقة، تنفستُ الصعداء، وأنا افكرٌ ساهمة الطرفِ: إن الله يمنحني نسمةً نديةً، تلطفُّ جفاف حياتي..

فتحتُ النافذة واستنشقت جرعةً كبيرة من الهواء...

الظلام بدأ يخيِّم على الضاحية الجنوبية لبيروت... ما زالت الأوراق أمامي تحتاج للترتيب... فالعملُ لا ينتهي دائماً على الوقت... حاولتُ جاهدةً اتمامه ولكنني كنتُ اتشاغل ببعض الأمور التي تمرُّ بطيئة مرور اللحظات...

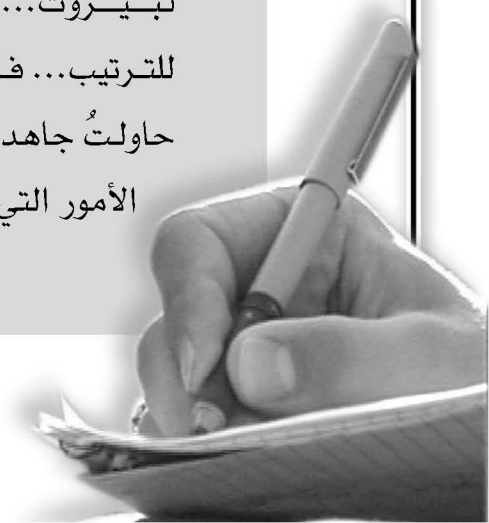

فـالعـمـل ... والوقت... واللحظـة... كلهـا تسيـرُ في هذه المدينة على عجلةٍ من أمرها...

لستُ ادري لماذا؟؟ هذهِ المدينةِ التي حـــاولتُ مراراً ومنذ ستة اعوام ان امدَّ جسوراً للتواصل بيني وبينهـا لكن لم يصـمـد أيَّ جـسـرٍ أكـثـر من ايام... فكان ينهار على الكثير من الآمال والأحلام والأحـزان... فقـد اضـجـرتني الأبنيـة والسيـارات والطرقـات حتى الأمطار التي كنتُ احبها صارت تضجرني هنا.

وكنتُ في كلِّ مـــرةٍ أبدأ طرازاً جـــديداً من الحـيـاة... كـان آخـره الإعـتـيـاد على العـمـل من السـاعـة الثـامنة صبـاحاً حتى الثـالثة مسـاءً... يخـففُّ من وطء الـزمن الزمـيـلاتُ اللواتي اعـمل معهُنَّ... فقد كنتُ محطَّ رعايتهن منذ بدأتُ بهذا العـمل وعـزائي اننا جـمـيعـاً فيـه، نخـدم المسيـرة المباركة التي آمنا بها...

انـزلقت الأوراق بـين يدي... فـــأيقظتني من

غفلتي واعادتني الى مكاني وزماني والى الهدوء المخيَّم على الأجواء من حولي...

لكنَّ اختراقاً مفاجئاً للهدوء استنفر وعيي وجذب انتباهي فوضعتُ الأوراق جانباً وانصتُ الى آذان المغرب الذي جاء ليحرِّك الحنين كما كل يوم... الحنين الذي صار يهزني شوقاً لقريتي البعيدة التي ما زالت تقبع داخل قلبي تحفر حبها الأبدي في الأعماق والوجدان...

تركتُ مركز عملي وتوجهتُ الى المسجد.. فالليلة هي ليلة الجمعة، ولهذه الليلة نفحةٌ خاصة في حياتي..

فمنذ زمنٍ الجأ «لدعاء كميل» أسير به بعيداً عن اثقال هذه الدنيا وهمومها.. أرحل خلف الآفاق فأسمو على الجراح التي لا زالت مفتوحةً على الف احتمال..

دخلتُ المسجد.. كان شعورٌ غريبٌ يدفعني للصلاة والبوح بمكنونات القلب بصدق كبير.

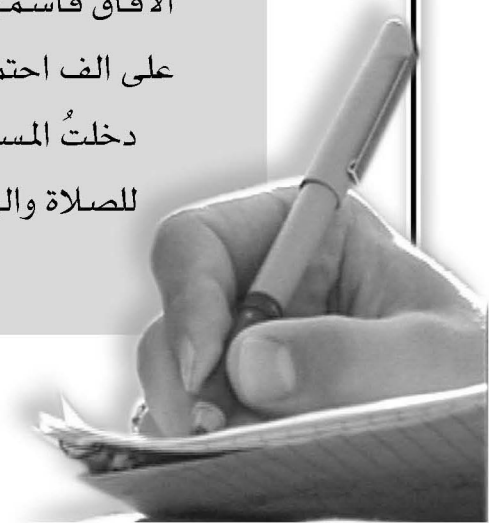

كـان الجـو يبـعث الدفـء فـي النفـوس، حـضـورٌ محببٌ واندفاعٌ للصلاةِ والتقرُّب...

رأيتُ اخواتٍ اعـرفهن منذ زمن... فـأحـسـستُ ببـركـةِ اللقـاء فـي هـذا المسـجـد الـذيّ مـا زال ورغم الصعوبات الكثـيـرة على مـر سنوات الجـهـاد... مـا زال واقــفــاً يغــزل قــصــة الإيمان والـصـمـود والمقاومة...

أخـذتُ مكاني وبدأتُ الصـلاة... التي كانت ومـا زالت تبثُّ القـوة في حـيـاتي وتنعش الأمل للمستقبل...

كنتُ سـاجـدة أعلن نهـاية صـلاتي... حين انتشلني الصوت الذي بدأ قراءة دعاء كميل...

ارتجف قلبي في صدري...

استدرتُ نـاحيـة الصـوت... لم اعـرف مـا الذي حصل لي...

هذا الصوتُ... هذا الصوتُ...

بدأ قلبي يخـفـق مـتـسـارعـاً... تنهـدَّت احـاول

اغماض عيني، ابحث عن نورٍ صغير اتبعه في هذا النفق المظلم وبعيد آلي حقيقة الصوت... اعرفه، اعرفه،

هذا الصوتُ اعرفه...

إنه يخرج من مسامات جلدي... اعرفه حنوناً يسير مع الآلام والجراح التي تسكن في قلبي...

اذكره جيداً يوم انتشلني من ذلك المكان الضيَّق، البعيد... الذي ما زال يسكن داخل انفاسي وحناياي...

صمتت روحي.. وسرتُ بخشوعٍ وراء صدى ذلك الصوت الشجي النقي الذي كان السبب يوماً ما للخروج بين القضبان والتحليق عالياً عالياً وراء القمر والنجوم...

# ٢ـ الذكريات المفقودة

لماذا الآن بالذات؟؟ لماذا عــاد من بين طيــات الأيام ليشعل فتيل الألم؟ ويجرِّدني امام احزاني ووحدتي؟

نسيتُ نفسي، لكنني احسستُ فقط بيدي ترتجفان وكأنهما تخافان مجرد رجوع الروح لذلك المكان حيث دفن الكثير الكثير من قلبي واحلامي وجسدي ودمي... عاد اليَّ شريط الذكريات نقياً واضحاً... تحت وطأةِ نورٍ ساطعٍ فاض من روحي على صوره ومحامنه عتمة الزنزانةً...

تلك الزنزانة: رائحة الرطوبة والعفن والآلام والأنين معبأة بين مساماتي لا تستطيع مفارقتي..

كانت اياماً يصعب تصديق وقعها ومرورها... وما زلت أتساءل حتى الآن «هل حقاً عشت هذه اللحظات؟ هل مرت على خفقات قلبي هذه الأحداث وتركتني على قيد الحياة؟».

غريبٌ غريبٌ كيف تغيِّر لحظةً مسارَ الحياة التي تتخذَّ منحىً لا يمكن التراجع عنه ابداً...

لا زلت اذكر كان يوم خميسٌ والطقس بارد، شهر كانون الثاني في قريتنا «محيبيب» يتقلب بين البارد جداً والقارس، كنتُ خارجة، نحو منزل اخي «علي» على بعد مفرقين من بيتنا...

لأخي علي الذي يكبرني بأربع سنوات مكانةٌ خاصةٌ في قلبي تجمعنا وحدة احلام وآلام... واذا بصوت سيارة يخرق الهدوء الذي يسيطر على حيِّنا في مثل هذه الساعة من النهار... فالكل قد عاد من عمله في الحقول والدكاكين الصغيرة القليلة في قريتنا قد اقفلت واستعد الناس لإستقبال مغيب الشمس المنسحبة من عناء النهار...

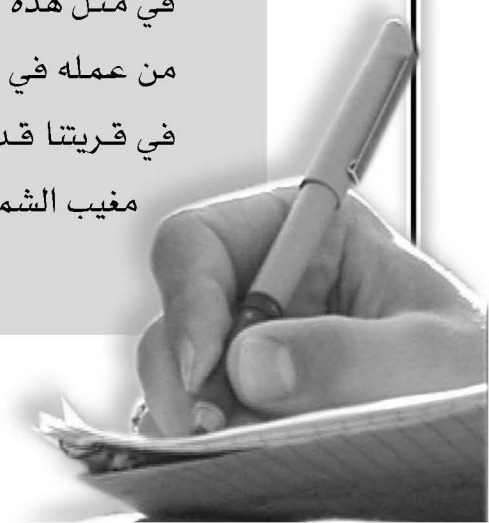

توقفت السيارة امامي، نزل منها رجلٌ متوسط القامة يرتدي ثياباً عسكرية، تلمعُ عيناه بحدةٍ وكأنه غاضبٌ من امرٍ ما، وكان في المقعد الثاني «زهير شقير» (احد رموز العملاء الأمنيين في الشريط) ذو الشهرة السيئة المخيفة التي باتت تنشر الرعب في قلوب الاهالي.

كان يقود السيارة، خاطبني بنبرة عالية: هيا اصعدي معنا.

اجبته بصوتٍ واثقٍ: اريد فقط ابلغ والدي.

اجاب بسخريةٍ: نبلغ والدك، لا يهم... ها هو قادم...

رأيتُ نظرةَ الإنكسار التي احزنني في عيني والدي حين هزَّ رأسه: اذهبي معهم يا ابنتي... الله يكون معك....

تجرأتُ على السؤال وانا اصعد السيارة: ولكن الى اين؟ ولماذا؟

«نريد التحدث معك خمس دقائق...».

كنتُ اعرف معنى الخمس دقائق... فدعوتُ الله ليمدني بالشجاعة والصبر... فالأمرُ لا يدعو للإطمئنان...

توقفت السيارة امام محطةٍ للوقود التي تحويه والذي تحول الى مرتع للعملاء وصار مصبَّ لعنات المقهورين والمظلومينً... لم يأخذ الطريق وقتاً طويلاً منذ خروجنا من المنزل، ربع ساعةٍ تقريباً...

لحظة وصولنا ترجَّل احدهم، احضر كيساً من النايلون ولفة من الشريط اللاصق...

وابتدأت رحلةٌ من التغيير والعذاب حين وُضع ذلك الكيس الأسود في رأسي وشُدَّت عينايَّ بقسوة...

رأسي اخذ يتحوَّل لمسرحٍ تلعبُ الافكار المتصاعدة افضل الأدوار... فتخاف وتبكي حيناً ثم تتمرَّدُ بعنفوانٍ حيناً آخر وتتألق بامتيازٍ حين تسير نحو الله تطلب المدد لهذه النفس الضعيفة...

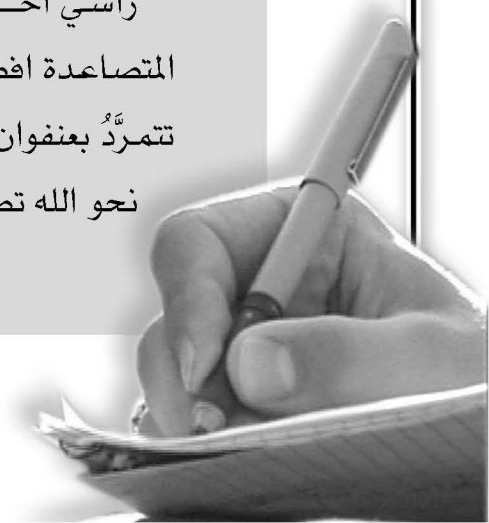

عرفت ان زهير شقير لا زال يقود السيارة. لقد حفظت طريقه المتوترة المجنونة في القيادة...

كانت المرة الأولى التي اسير فيها معصوبة العينين واسيرُ الى مكانٍ مجهولٍ بعيدٍ... احسست بالظلم والحزن في اعماقِ قلبي... هزني هذا الواقع... تخطَّت السيارة مطبات ثلاثة عرفتُ اننا تخطينا منطقة «الميس» وبعدها انعطفت يميناً فسرى الهدوء قليلاً - فقط - لأنني عرفت الإتجاه الذي نسير فيه... نحو الخيام...

توقفت السيارة في مكانٍ ما، فزادت ضربات قلبي لتنذرني بخطرٍ قد اصبح قريباً...

سألني العميل... هل تعرفين اين انتِ الآن؟

اجبتُ: لا، اين؟

ضحك ضحكةً هازئةً واضاف: ماذا تعرفين عن معتقل الخيام؟

«يقولون انه مقبرة الأحياء»، جاء صوتي متردداً. (معتقل الخيام، اسمه يجلب الرعب

والحزن لبيتنا فأخي علي قضى فيه عدة اشهرٍ وابي الحبيب سيق اليه فعاد للبيت منكسر النظرة والخاطر...) نعم اعرفه، اعرفه.

- انزلي اذن.

وقفتُ استمع لصرير الباب وهو يفتح وادركت من صوت وقع الأقدام ان احداً يتقدم نحونا.. وفي الحقيقة كانت شرطية جاءت تستلمني.. ادركتُ عندها انني اصبحت داخل معتقل الخيام... العالم الغريب الذي كنتُ حتى اللحظة انظرُ اليه من البعيد.. ويرق قلبي للصابرين في داخله.. معتقل الخيام عالم التعذيب والرهبة والصبر..

اجتاحني شعورٌ بالضياع لم اجرَّبه من قبل وادركتُ ان الإنسان يظل معلقاً بأملٍ شديد الضآلة طالما هو لا يعرف شيئاً.. امتدَّت يد تجرني بصمتٍ... مشيتُ منصاعةً معصوبة العينين وشعورٌ بالقهر يأكلني... دخلنا الى

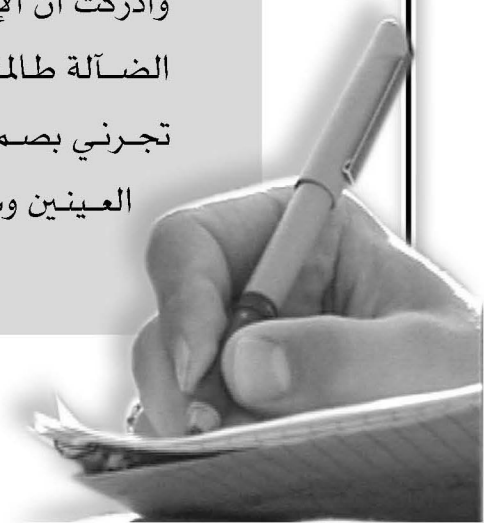

مكانٍ ما، شعرتُ بالبرد... فالسماء تمطر بغزارة والهواء يصفرُ متمرداً... دوار وغثيان ترقبُ للمجهول يتملكني.

جاء الصوتُ من الداخل يقرعُ اذنيَّ يسألني عن اسمي، اسم ابي، اسم امي من اين اتيت... مضت نصفُ ساعةٍ على بضعةِ اسئلةٍ... ثم اقتربت الشرطية، سحبت الكيس من رأسي رأيتها منتصبةً امامي، شعرها اسود قصير، يغطي وجهاً يضم تقاسيماً ملؤها الخشونة والقسوة... زجرتني: «اخلعي الحجاب عن رأسك» هذا الأمر هزني لقد بدأت المسألة تسيرُ بعيداً عن التصور... فازداد القلق...

خاصةً ان الشرطية انقضت عليّ بقسوةٍ وسحبت الحجاب عن رأسي حين رفضت خلعه، وبلؤم شديدٍ وسخريةٍ: «لا تستطيعين انا اعلمك كيف».

اول ما تراءى لي بعد الذي حصل صورة ابي

وحدثته قائلة: «ماذا كنتَ فعلتَ لو انك حضرتَ هذه الواقعة فسترت القشعريرة في شراييني» اخذوا اغراضي: الساعة وربطة شعري، وتذكرة هوية.. آخر ذكرى من وطنٍ منسي.... ثم اعيد الكيس يحدَّ انشراح صدري... حاولت حفظ الإتجاهات التي اسير فيها.. دخلنا الى الى مكانٍ آخر... الباب كان اشبه بقطةٍ تموء وهو يُفْتح على مهل...

كانت الأبواب تُفتح... وتُغلق في نفسي الآمال بالعودة الى الوراء الى الزمن الأصفى الذي كنتُ فيه... بدأت الأسئلة تتسارع في ذهني وشيءٌ غريبٌ يتنامى داخلي، اهو الخوفُ ام القلق؟ ام السير نحو المجهول هو ما يرعبني؟؟ احسست بالوحدة الكبيرة، فلا احد معي... غير نور امل يربط قلبي بخالقه.

سحبت الشرطية الكيس من رأسي وفكت القيود... فتحتُ عيني فلم تتوضَّح الصورة

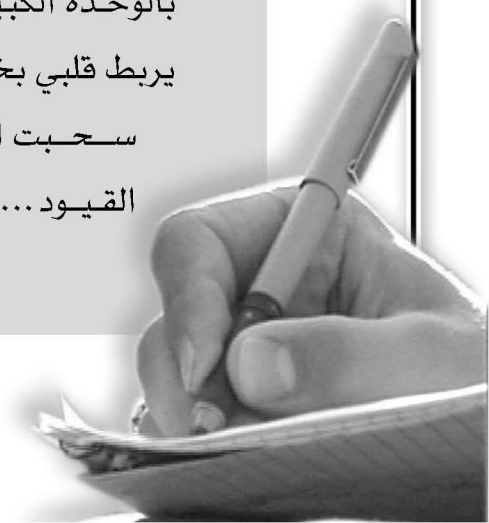

امامي بسرعةٍ وبدأ شيئاً فشيئاً يعود البصيص فظهر امامي ممر طويلٌ والكثير من الأبواب الحديدية... اقفالها تتدلى داخل العتمة...

صرخت الشرطية بصوتٍ قطع الهدوء:

هيا ادخلي بسرعة...

اقفل الباب ورائي ولم يعد من مجالٍ للسير الى الأمام...

# ٣ـ الزنزانة رقم ٧

كان الدعاء في المسجد لا يزال مستمراً والصوتُ يقلّب التاريخ والذاكرة والأوجاع والأحزان والزمن المنسي... رددتُ تحية صديقةٍ اقتربت مني معاتبةً لنسياني اسمها...

فسخرت في سرّي لهذه الذاكرة التي تحملني وتعود لأدق التفاصيل في ايام الاعتقال تلك... وتخونني فلا أتذكر اسماء صديقاتٍ اراهُنَّ دائماً...

انقطع الصوت فجأةً واظلمَ المسجدُ حولي: انقطعت الكهرباء... فوجدتني وجهاً لوجه مع جدران زنزانتي التي تحمل الرقم ٧.

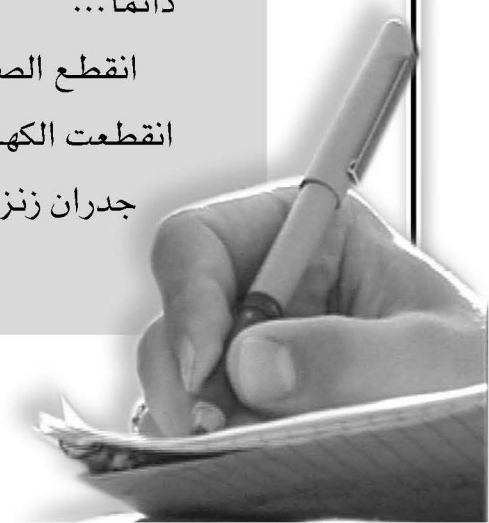

العتمة في الداخل شديدة والسقفُ منخفض، بدأتُ اتحسس ما حولي لأعرف مساحة المكان الذي اتواجد فيه...

للمرة الأولى اشعر انني متروكةٌ فما اصعب ان انتهي على بابٍ سجنٍ قذرٍ... انا التي حلمتُ بالحرية وبكل السجون تتكسر وبالقيود ترمى الى غير رجعة...

الصمت قاتل وانا ادور في الزنزانةِ التي لا يتعدى طولها المترين وعرضها المتر وارتفاعها تقريباً مترين...

سخرتُ من كل شيءٍ في لحظة... اخذتُ اتأمل بصعوبةٍ ما حولي... لا يوجد سوى ارضٌ وسقفٌ وحيطان... آهٍ بلى يوجد شيء: سطلٌ صغير يقبع في الزاوية اعتقدتُ انه لحفظ الماء...

لا همسة ولا حركة... والجدران حولي تحد النظر والخيال، سيطرت الوحشة على قلبي وملأ الفراغ حواسي... واخذتُ اتذكرَّ حياتي السابقة

بشريطٍ مرَّ امام عيني صوره مشوشة والأمور الواضحة قليلة...

كل ما أراه هو هذا المدى الضيّق للمكان ويصعقني كيف يمكن ان ينتقل الإنسان من المساحات الواسعة والشمس والهواء الى جدرانٍ اربعة تصدّ شعاع النظر لقربها من العين.

تحسست بعض الأحرف على الحائط، فقرأتُ كلمة «يا الله... لن يقتلوني في هذه الزنزانة»... رددتُ مؤكدة يا الله... يا الله... أدركتُ انني لستُ وحيدة وان شعاعَ النور الإلهي لا يزال يضخُّ القوة في شراييني والصبر في قلبي والإيمان في حياتي، وان الله معي في هذا المكان البعيد المنسي.

مع كل حركة من حركات الشرطية التي كانت تقترب ثم تتراجع يزداد القلق وجعلني بانتظار شيءٍ ما لا اعرف ما هو.

عليَّ ان آلف المكان حدثتُ نفسي فهذه

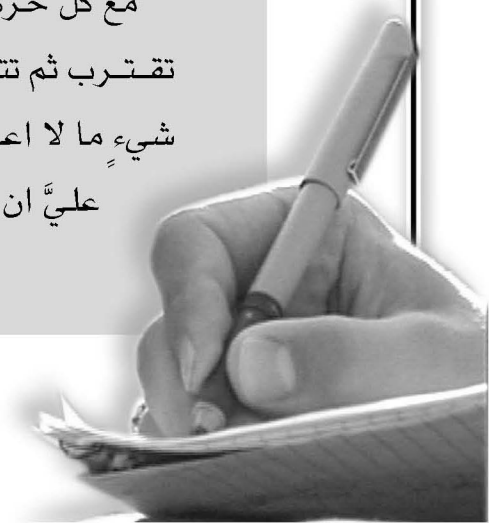

الزنزانة ليس بالمفاجأة ابداً... كان علي ان اتوقع الوصول الى هنا لأنني مدركة منذ زمن بعيد ان كل موقفٍ يتخذه الإنسان في حياته لا بُد وان يدفع ثمنه... راضياً وقد تكون حريته او حياته.. هي الثمن... لا بأس!.

تنفستُ بعمقٍ مع انني خائفة من ان ينفذ الهواء بين هذه الجدرانٍ... عرفتُ ان دور البصر يتضاءل كثيراً: عندها يقوى دور السمع اللمس ويعلو مؤشر الحاسة السادسة ومؤشر نبضات القلب...

فجأة... يخترق الصمتُ وقع اقدام عرفت انها الشرطية حين فتحت باب زنزانتي تستدعيني لأمرٍ ما: فقدرت لي بطانية وابريق. رغم الظلام احسَّ بالغبار والخيطان التي تتناثر من هذه البطانية تروي مرارة من سبق له ان تدثر بها.

انهمكتُ في فرشها والدوران في الزنزانة حين فاجأني نقرٌ بسيطٌ على الحائط؟.. امعنت الإنصات فازداد النقر انه صوت فتاه - ايتها

الجديدة - ايتها الجديدة... قفي على الباب اذا كنت تسمعيني.. وعاد الصوت... انفرج قلبي بشعور رضا فقد احستف بالحياة في ثنايا الصمت المرعب والوحدة، تشجعتُ ابحث عن مصدره - من انت؟.

اجبتُ بصوتٍ يملؤه الأمل والرجاء: انا؟

- نعم انت؟

- من اين تتكلمين؟

- من الزنزانة المجاورة...

- هل انتِ وحدك مثلي؟

- كلا. لدي رفيقةٌ معي.

توسعت دائرة الحوار بيننا على امل الإستمرار، سألتني عن الطقس خارجاً، عن اسمي، عن قريتي وعن اخبار الشريط... انقطعت كلماتنا لدى وصول الشرطية التي رمت الأصفاد امام الباب وفتحت الزنزانة طالبة ان امد يدي، وضعت القيود في يدي والكيس مجدداً في رأسي

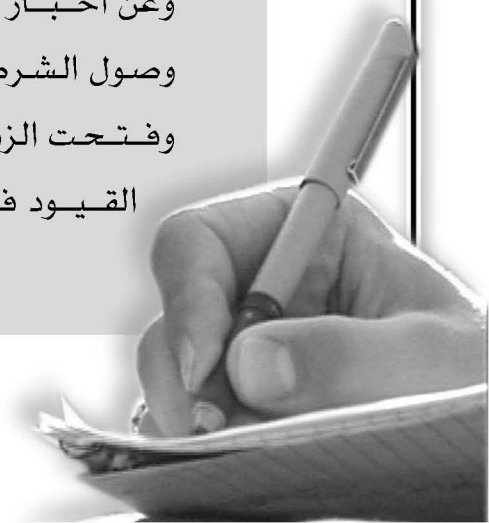

سرتُ خلفها لا اعرف اين اضع قدمي... اتعثر من السرعة والعتمة...

بدأت اتساءل: ما الذي يحصل معي يا ترى؟ هل هو شيءٌ حقيقي ام انني تحت وطأة كابوسٍ مخيف... لم اعد احس بالزمان والمكان منذ صعدت تلك السيارة اللعينة: الظلمة، القيود، السيارة المسرعة، صرير الباب، والبطانية.

سخرتُ من «الخمس دقائق» التي لأجلها اخضروني الى هذا المكان، ولعنتُ ذلك العميل الحقير الذي يأنس بآلام الناس مقابل حفنةٍ من المال وصلتُ الى مكانٍ لا اعرفه... احسستُ ان كل حواسي بدأت تتحفز كي تلتقط وتتلمس ما حولها بعمق...

شعوري الذي يدفعني للمقاومة وتخطي هذه الحالة هو الذي يساعدني على اختراق عتمةِ الكيس... جاءني الصوت من امامي يسألني عن اسمي ومن اين اتيت... واستفزني سؤالٌ غريب:

لماذا انتِ هنا؟ ضحكتُ مستهزئةً: ما الذي ادراني انتم اتيتم بي الى هنا... وبدأ يحاول استدراجي بصوتٍ عطوف اعتاد هذا الكلام المعسول...

لن يفيدكِ عنادك يا رسمية، انظري هذه «زينب جابر» استدعيناها منذ شهرٍ وعادت الآن معززة مكرَّمة الى بيتها، لم نأخذ من وقتها الا بعض الإجراءات الروتينية.

كنتُ اعرفُ حق المعرفة كيف عادت زينب معززة! يميتُ الألم والخوف قلبها...

صرخ فجأةً: هه، هل تحبين البقاء هنا؟

لم اجبه ولكن كان لدي رغبةً كبيرةً بالصراخ وضرب هذا اللعين على وجهه.. حيث بدأت لهجة المحقق تصبح ساخنة ثم بحركةٍ عصبيةٍ قام من مكانه بسرعة، واحسستُ من لهاثه انه يقترب مني.

صاح فجأةً: اركعي! اركعي على الأرض...

انحنيت والسلاسل في يدي، تلمستُ البلاط بأطراف يدي...

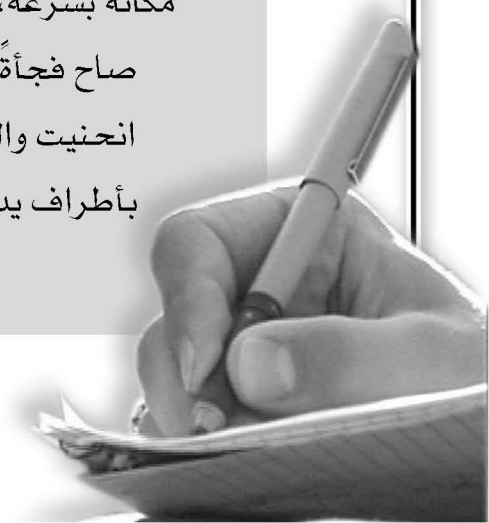

امسكي هذا بيديك...

تلمستُ كرباجاً ملفوفاً من الحديد، سميكٌ جداً...

هل ستتكلمين ام لا؟

- بماذا تريدني ان اعترف؟

- يعني لا تريدين الإعتراف، ارفعي يديك اذاً...

ترددتُ في رفع يدي ثم رفعتهما وهوى بكرباجه على يدي ثم اخذ يصيح ارفعي يديك، ارفعي يديك... وينزل الكرباج بعد كل كلمةٍ علي يدي... وكانت يداي لا تزالان مكبلتين بالأغلال ورأسي معصوباً...

صارت السياط تكويني، توجعني وتنزل على ظهري حامية جارحة... مع كل ضربةٍ تزداد حدة صراخ المحقق وسرعة ضربه وبدأ الدم ينزف مع الالم المريع...

التزمتُ الصمت وكان مع صمتي يزداد حدةً

ووحشية، لم اعد استطيع التحمل فالألم قوي... صرخت من اعماق جرحي... توقف عن ضربي ماذا فعلتُ لك... انني اتألم...

كانت كلماتي البلسم الذي زاد نشوة جنونِ هذا الوحش الذي لم يكن يرى امامه شيء...

ونادى الشرطية: اسحبوها، هذه الجرعة تكفيها حالياً...

هيا انهضي بسرعة، يجب ان تخرجي من امام المحقق... حاولت الوقوف لم استطع... الدم يسيل من قدمي... احسستُ بالظلم حاداً ينزل في حياتي فسرتُ الى اللهِ طالبةً العون، فأمدني بالصبر والقوةِ حتى وصلتُ الزنزانة...

احسستُ بامانٍ غريب في احضان هذه الزنزانة فإن البقاء هنا افضل مئةً مرة من وجودي مع ذلك المحقق المتوحش الذي كان يؤكد لي انه يعرف عني الكثير... معلومات تستطيع ان تتركني بين جدران هذه الزنزانة حتى اتعفن فيها... يريد بثَّ

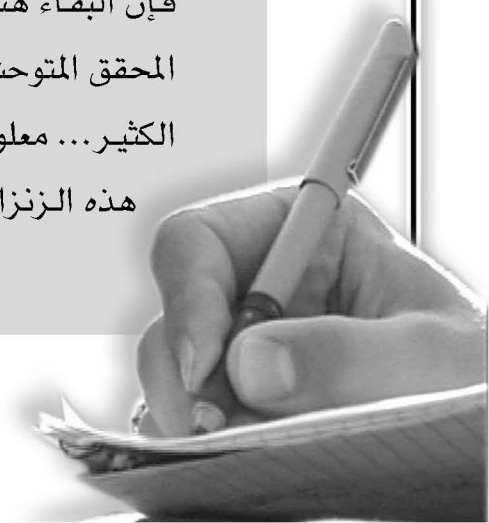

الرعب في قلبي حتى لا استطيع المقاومة راودتني كلمة غريبة «انني اسيرة في هذا المعتقل» كنتُ اسمعها تقال عن احداهن اتفاعل معها... ولكن انا هي الأسيرة الآن، شعورٌ آخر، شعورٌ يبثُّ العنفوان في النفس ويثبت الاقدام ويقذف السكينة والتحدي والمقاومة في القلب...

انني بحاجةٍ للصلاة للدعاء، فالألم يمحي الذنوب ويزيل الحجب، الألم شديد والدم ينزف من ظهري، توضأتُ بالماء القليل في الإبريق البلاستيكي، ووقفت مباشرةً في اتجاهٍ معينٍ ظناً انه القبلة كأن قلبي الشاكي الى الله دليلي الذي لا يخطىء... وصليتُ كما لم اصلَّ من قبل... العزيمة اوقفتني ثابتة، والتوجه ازال الاحساس بالألم...

حاولتُ النومَ لم استطع فالبرد شديد والبطانية لا تكفي... ولكن لم تستمر محاولاتي كثيراً...

ارتجفت لصوت الأصفاد ترمى امام الباب

جاءت الشرطية تجرني مرَّةً ثانية، اقدامي تؤلمني، لا استطيع السير عليها جيداً ولكن لا يهم...

جرتني وراءها، وصلتُ الغرفة... احسستُ بلهجة المحقق الساخنة:

- هل ستتكلمين الآن؟

- ليس عندي شيء اقوله...

- اسمعي، عندنا الف اسلوبٍ مفيد للكلام... وسوف تتلكمين، سترين.

لم ينه كلامه حتى اسقط الكرباج نفسه الذي الذي آلمني فيه في المرة الماضية على قدمي، فاشتعل الدم النازف... والوجع الرهيب...

- ما زلنا ندلعكِ، سترين ما الذي يحل بك ان عاندتي.

لم اكن اتوقع شيئاً من الذي سيحصل لي...

ما احسسته فقط هو ان الجلاد قرب مني شيئاً سقطت مغشياً عليّ، استيقظت داخل الزنزانة على يدين تحاولان ايقاظي ومسح

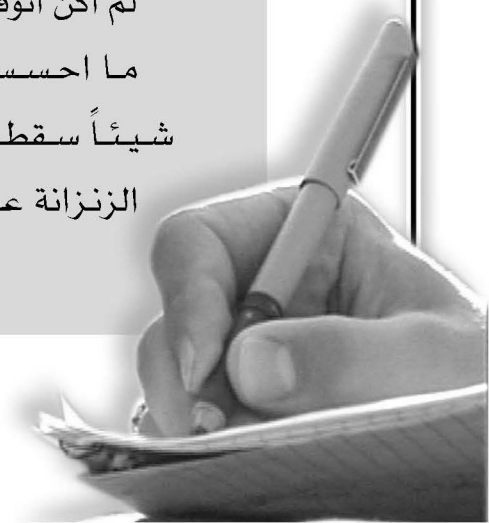

الدمـــاء عن وجــهي... لقــد عــذبوك بالكهــرباء وانهالت بالدعاء على المحققين الخبثاء...

كـانت تحنو عليّ كـأمي تحـاول احـتـضـاني لتخفيف الألم الذي كان ينهش قلبي... من انتِ؟

ـ زينب وهذه رفيقتي «رُلا»...

ـ سنكون معاً في هذه الزنزانة...

ـ انتما هنا منذ وقتٍ طويل...

ـ انا هنا منذ ستة اشهر وثلاثة ايام.

ـ رُلا: انا منذ ثمانية اشهر وعشرة ايام.

ـ «وانا هنا منذ الآن» اجبت مبـتـسـمـة برغم وجعي...

تحسنتُ لرؤيتهمـا وحاولت التمـاسك متجاوبةً مع كلام زينب التي تمدني بالصبر والإيمان...

كانتا متلهفتين لمعرفة الأخبار في الخارج، عن الحرب في بيروت عن اخبار المقاومة المنسية في هذا العالم.

واستـرسل احيـاناً بالكلام فتقاطعني برفقٍ او

بسؤالٍ: من هذا الذي تتكلمين عنه؟ حقاً متى حصل هذا.

وتوسعت الاحاديث ودائرة الأشواق لترسم طريقاً جديداً في انفاقِ هذه الحياة الخانقة، قطع كلامنا اللطيف صوت الشرطية تدفع الينا صحون الطعام: اليخنة ببطاطا رائحتها غريبة وزينب تنقب منها شيئاً لم اعرفه بدايةً لكنني استطعت لاحقاً تمييز الدود الصغير الموجود على طرفي الصحن... لم استطع ان آكل شيء...

عرفتُ الإستعمالات الكثيرة للسطل حين طلبت الشرطية رمي الطعام المتبقي فيه: فهو تارة «مرحاض ويصلح لرمي النفايات ويكون له استعمالات كثيرة اكتشفتها لاحقاً».

لم اتوقف كثيراً عند الطعام الآخر الذي اكلته «رُلا» ظننتها تحتفظ به من يوم ليوم...

اشعر بالتعب والأنين يزداد في نفسي، وحدها اللحظة المنسية تستطيع التعبير عن الحزن

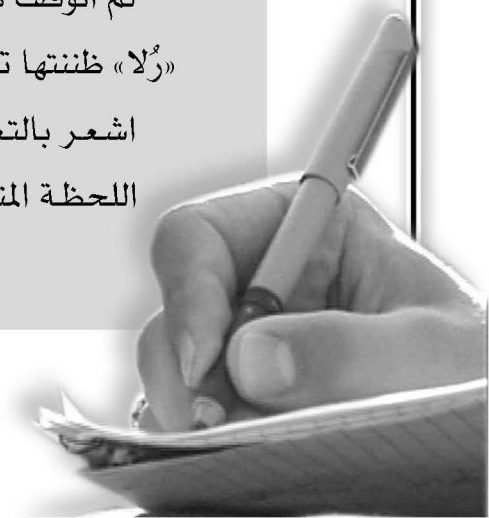

الذي احـسـسـتُ به في ذلك الوقت... فلستُ ادري من الذي يسـجل هذه الكلمـات اهو هذا القلم الأصم ام الرغبة الجامحة في نقلِ الألم خطوطاً واضحةً يراها الزمان بعد ان ينسانا الناس...

هل يشعر من يقرأ هذه الكلمات مثلما اشعر انا الآن، هل يغلي الألم في نفسه فيكاد يذيبها مثلما يفعل بنا نحن الذين عشنا في المعتقل؟؟.

لا اطرح السؤال عالياً ولكني سمعتُ الجواب همساً، طبعاً نشتاقكم والإ فعلام نتكبد عناء الإنتظار.

# ٤ ـ سعدى

لم يكن إستشهاد «سعدى» مستغرباً... ولم يكن تسريب الخبر لنا مستغرباً ايضاً... فشهادة «سعدى» كانت افظع ما يشوَّه به العدو قوة وصبر المعتقلات والمعتقلين.

جاءنا الخبر صاعقاً: «انتحرت لم تستطع التحمل».

يد خفية تمتد فتعبر المكان والزمان. تعبر مثل لمح البصر، ظللتُ صامتة، وصاعقة الخبر تنهمر عليّ مثل زخّات مطرٍ مفاجىء والأفكار تتماوج في وعيي ولا وعي...

سعدى؟!

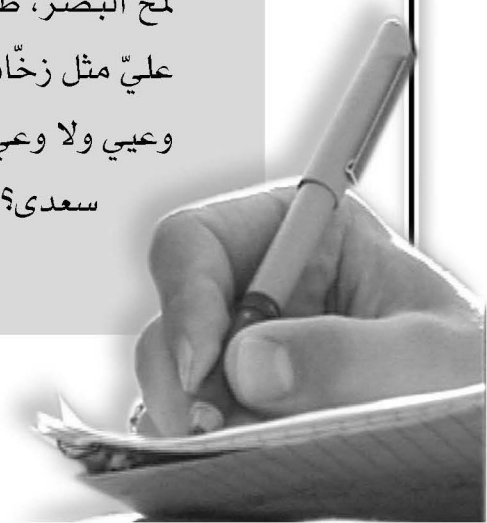

كيف انسى حكايتك يا سعدى؟ كانت حلماً مزعجاً رافق وجودي المعتقل... ها أنا احاول ان اعيد الحكاية، ان ارسم وجهك من جديد ان اعرِّف الناس اليه، علَّ مشاركتهم تريحني...

كانت تعيش الحياة كلها بكل وجهٍ من وجوهها وكانت مشاركة المقاومة ابرز تلك الوجوه... ثم في يومٍ سحبت سعدى إلى معتقل الخيام، امضت سنوات خمس في الصمت والتعذيب والتجاهل والبطش... وها هي الآن في اللحظة التي أطلقت للحرية تقع من شدةِ العتمة في عينيها في بركة ماء دون مقاومة... بقي انين سعدى وخبر استشهادها يخلع شرايين قلبي في دقاتٍ بطيئةٍ متواصلة... وظلَّ رنينه يحفر في سمعي ويمتزج بنقر حبات المطر في الخارج...

لا ادري لماذا الآن بالذات خطرت على بالي هذه الصور... وانا افكر في استمرار الحياة.

ويأتي من خلف هذه الصور صوت الأصفاد

ترمى امام زنزانتي... ثم الكيس... والعتمة... أدخلتُ الى غرفةٍ، من الطريق الذي سلكناه احسست انها غير التي كانوا يحققون معي فيها...

جاء صوت من المجهول.

ـ هه يا رسمية هل تذكرتِ شيئاً؟

ـ ماذا تريدني ان اتذكر؟

عرفتُ ان جوابي لم يعجبه حين تلقيت لسعة من كرباجه وهو يتلذذ بضرب انسانٍ يرفض الإنكسار.

كان الكرباج ينزل على جسدي فيفتح جراحاً جديدة ويثير ما لم يكن قد هدأ بعد. نادى الشرطية جرَّتني بصمتٍ... صفرت الريح وكأنها تشارك جراحي النحيب والعويل... كانت الرياح تلفني... عرفتُ اننا في باحة السجن كنتُ وحيدة حين سمعت صوت خرير الماء ينزل في إناء فيزيدني برداً...

ويكاد الدم يجمد في جروحي النازفة...

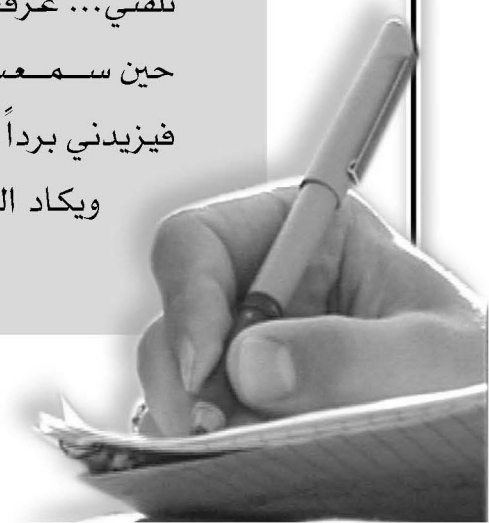

اقتــربت الشــرطيــة رفـعت قـبــة كنزتـي واذا بالماء البــارد ينسكب على ظهــري، داخل مــلابسي... ينسكب دون سابق انذارٍ او كلمة...

تأوهت جراحي وغضبت لوحشية هذا الجلاد..

كنا وحدنا... السجان... وأنا... والماء والبارد... وقفتُ بإجلالٍ لروحي المعذبة التي رفضت الإنهيار والصراخ...

احسستُ بميلٍ جارفٍ للضحك... نعم للقهقهة بصوتٍ عالٍ عالٍ جداً يدخل بسخرية في قلب هذا السجان ويخترق افق السجن ليطير المعذبين في العالم...

يدعوهم للضحك والقهقهة في وجه سجانيهم حتى يحترقوا بلسعة الصلابة والشموخ.

وفكرت للحظة... ان الذي يصب الماء علي هو مجنون او هو يحترف الجنون... توقف التعذيب ثم اعــادني الى الزنـزانة... حـاولت النظر في عيـني السجـان احـببت ان اتحـداه بنظرة احتقـار... لكن

هذه المرة تدعونا لأخذ الماء... كان البلل يعتصر ثيابي... فكرهتُ الماء للمرة الأولى في حياتي... شدتني دهاليز الظلام والقلق... ورنَّ صوت الكرباج في اذني تذكرت كل شيءٍ دفعةً واحدة... ارتجفت تحت احساس الماء ينزل على ظهري... تنهدتُ محاولةً ازالة الخوف من تجاويف قلبي بذلتُ جهداً كي افتح عيني فجأة أمعن السمع لصوت آتٍ من خلف جدران العزلة... سال الصوت هادئاً نقياً ايقظ في كياني الأحاسيس الغافية وفجّر وجداني... فجرت اقنية دموعي سيولاً وحنيناً...

سارعتُ امد يدي بصورةٍ عفوية... محاولة ابقاء الصوت معي... بدأ الصوت يملأ اذني وقلبي معاً... ويرتفع صلاةً تتردد بخشوعٍ.. زاد الصوت نقاءً:

«فإليك يا رب نصبتُ وجهي واليك يا رب مددت يدي، فبعزتك استجب لي دعائي وبلغني

مناي ولا تقطع من فضلك رجائي... يا سريع الرضا إغفر لمن لا يملك إلا الدعاء، فإنك فعال لما تشاء يا من اسمه دواء وذكره شفاء، وطاعته غنى ارحم من رأس ماله الرجاء...».

ابصرتُ عندها السجَّان والمحقق والشرطية يتراجعون، ثم يغرقون في بحر الحيرة والضياع، وهم يبحثون عبثاً عن جوابٍ مقنعٍ... عن سر قوتنا وثقتنا... عن الحقيقة في عيون «سعدى»... عن البسمة في وجه زينب ورأيت الكلمات تتساقط من بين شفاههم مرتعشة كأوراق الخريف...

ونرد بسخريةٍ لن تبلغوا السرَّ الذي لأجله استشهدت سعدى... والذي لأجله نحيا...

جاء الدعاء يعيدني من اعماق الشرود، استدرت غير مصدقةٍ كانت روحي ترف بجناحيها... ترف بانتصارٍ... بفرح كبير.

# ٥ ـ رجع الصدى

طويلة كانت ايام اغترابنا... ها انذا بين الناس في المدينة، في هذا المسجد... يحدقون الى نظراتي الحزينة والى تساؤلٍ متهالكٍ فوق شفتي: «هل حقاً بكيتِ يوم غادرت المعتقل؟».

كان وجود زينب وصفاء وفاطمة وسعدى رهن بتلك اللحظات التي انطفأت مع تسليمي بطانيتي وصحني واستلامي ساعتي وربطة شعري... وتذكرتي القديمة.. جواز العبور من سجن الخيام الى سجن الابعاد.

ويبقى القلم يسير اسمع صريره وهو يسجل ذكرياتي والصور المعذبة الهاربة مني... اذكر

الوحـدة تنهش قلبي، يوم لـوحتُ بالمنديل لزنزانتي ووقفت اقبل رفيقاتي...

هـذه الزنـزانـة عـــاشت في قلبي، تغـــذَّت من اضلعي... ها انا اراها غبراء دكناء،...

شـعـرتُ بأنني حين وقعتُ اعترافاً سـاخـراً انني «لن اسـاند المقـاومـة بـعـد الآن»، صـفـقت روحي من حـرارة الحـيـاة.. اغـمـضت عـيني لأسـمع اصـوات آلامي.. انني اسمعها تشق جدران الصمت المغلفة بغبار الأيام.. كما تشق سنبلة القمح النحيلة قشرة الأرض لتعيد اناشيدها الخضراء، ترانيمها في آذان الوجود.

ولدت الشـمسُ من جـديد في ذلك الصـبـاح، فـهـزمت الدقـائق الخـمسـة التي كـانت تقـضـيـهـا الأسيرات كل يوم تحت شعاعها...

خمس دقائق يا شمس هو ما كان يسمح لنا ان نعـبـه من دفئك، هل رأيت في مـشـوارك الطويل كائن في الأرض يبخل عليه بدفئك وشعاعك...

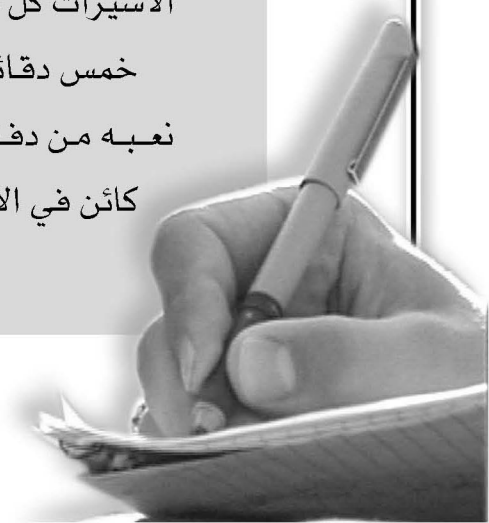

كانت سيارة الصليب الأحمر بانتظاري حيث طرت الى القريةِ... شوق غامر يدق جدران صدري ويدفع الحرارة في عروقي... لفح الهواء وجهي، فاستغربته وتنفست الكثير منه... لم اكن اتوقع ان تخرج القرية كلها لاستقبالي، انا العائدة من سراديب الظلمة والانتظار...

فاض وجهُ امي بشراً، هي التي حضّرت للحزن جلباباً وتركت لمعتقل الخيام اوسعها.. ومسحت فرحة رؤيتي ظلال القهر عن وجه ابي الحنون بكت أمي والجارات فلا مفرَّ من البكاء عند ابناء قريتنا في الاستقبال وفي الوداع... اعطاني حنانهم طاقة ذاتية على الحب... وبدأت احلم بأن اعود ثانيةً للتحليق...

لم تكن طريقي مصادفةً ابداً... في النهار مثل كل بنات قريتي... اقوم بأعمال المنزل الروتينية وانتظر انقضاء الساعات الطويلة وحين يأتي الليل تبدأ حياتي...

الليل كان ستاراً يدثر قصة حب مع الأرض والمقاومة والسلاح... صلاة ليلٍ جهاديةً... هدية متواضعة لمسيرة السواعد الالهية المقاتلة.

كانت جراح الوطن تنزف امام عيني... لم يكن بوسعي او بوسع اي كان إلا ان ينتصر لجراحات الوطن...

لستُ نادمةً على اي لحظةٍ من اللحظات التي امضيتها بين جدران الزنزانة كل ما حصل لي هو ضريبة ادفعها لأنني احببتُ الأرض وقريتي واهلها والمقاومة... لقد رأيت الحسين عليه السلام امير قافلة الثوار يدعوني فنادت روحي «لبيك يا خميني».

تركتُ المسجد... حاولتُ رؤية صاحب الصوت الذي استطاع اخراج روحي من المعتقل وتزيين الزنزانة وجدران قلبي بصفائه وروعته، لكن الذكريات شدتني فكنت الأخيرة التي خرجت من المسجد...

حزنت كثيراً لكن صدى صوت دعائه لا زال

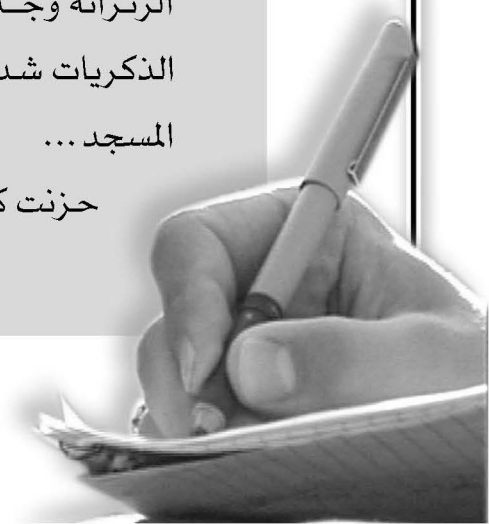

يتردد في افق حياتي يزيدني صبراً وأملاً وتعلقاً بالنور الالهي..

صار الصدى، دليلاً وفيصلاً دائماً بين الخنوع وبين الانتفاضة. بين الركون لسجن الدنيا وبين التحليق نحو الافق العلوي الأرحب.

تابعتُ مسيرتي والأمل يطفو على محياي... كل ما قدمته... هو بسيطٌ بسيط في مسيرة الجهاد والولاء.

والأيام التي قضيتها متألمة حزينة مظلومة مقهورة هي التي رممت الطريق بيني وبين الحياة، صار الطريق راسخاً ثابتاً مسدداً بصلاة المعتقل وصدى دعاء «كميل» والصمت الشجاع امام الجلادين...

لم تترك المدينة القاسية ابواباً مفتوحة... فالأبواب اقفلت بين قلبي وقريتي الرائعة... تمنيت ان الثم ترابها، ان اتبارك بالسجود عليه..

هالني طريق العودة الواسع فناديت حدود

قـريتي الـسـجـينة دثريني، خـذيني فـقـد آلمني الإبعاد...

اشـتقت لتـرابك يضـمني، فـقد ضـاق جسـدي بهذه الروح الطليقة علَّ فضاءك يحويها...

هذا الصباحُ، كنت في عملي، اذيع نبـأ استشهاد احد المقاومين... تدخلت صديقتي مـوضحـةً: انه صديق اخي، لعلك تعرفينه هو من يقرأ الدعاء في المسجد المجاور...

لم تزد اي كلمـة... لكن ذكـرى الصـوت غـزلت قصة تحكيه.. لم تنته ابداً...

# اعتراف

انا الموقعة ادناه: رسمية فوزي جابر

الأسيرة السابقة في معتقل الخيام

والمبعدة عن الشريط المحتل...

اقـرُّ واعـتـرف بأنني لن اتوقف عن مـسـانـدة المقاومة..

وعن محـاربة اسـرائيل التي تريد قتل احـلامنا والدوس على ورودنا...

واغتيال مستقبل اطفالنا..

وهيهات لها ان تمحو من قلبي ذاكرة الصدى.

- **القصة:** ذاكرة الصدى.
- **الكاتبة:** اميمة محسن عليق ـ مجازة في علم النفس ـ الجامعة اللبنانية.
- **الدرجة:** نالت قصة الاسيرة رسمية جابر، الجائزة الاولى في المسابقة التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب الله لأجمل قصة أسير في معتقلات العدو الصهيوني.
- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى ـ ٢٠٠١م.